ميشيل حدّاد والتحوّل الذي قد يكون*

(**نسيم في طيّات العاصفة**) الديوان الأخير للشاعر ميشيل حداد يُضاف إلى دواوينه السابقة التي تحتلّ مكانة خاصّة ومتميّزة في مسيرة الحركة الشعرية الفلسطينية المحليّة.

وكما أثارت أعماله السابقة الجَدَل حول ماهيّة الشعر ومكانة هذه القصائد في ديوان الشعر فإنّني أعتقد أنّ هذا الجدل سيتجدّد.

تميّز ميشيل حداد بالطريق الخاصّة التي اختطها لنفسه، وبابتعاده عن خوض غمار المعارك الجديّة والمُفتعلة، وأصمّ أذنيه عن كل ما قيل عن شعره وتابع طريقه بهدوء وجلادة وإصرار حتى اعترف به الجميع، واعترفوا بأهميّة ما قدّم وبالتميّز والتفرّد الذي كان من حظّه.

(نسيم في طيّات العاصفة) كلمات قد تبدو للوهلة الأولى طبيعية متناسقة جميلة تُطلق الخيال من عقاله ليبحث عن هذا

النسيم المُتستّر في طيّات العاصفة، وسرعان ما يجد القارئ نفسَه وسط رقة النسيم بعيداً عن شراسة العاصفة التي توقّعها ولم تأتِ.

هكذا ينجح الشاعر في شدّ القارئ وإثارة قلقه واشتداد توقّعاته حتى يكتشف في نهاية القصيدة الأخيرة أنّ لا عاصفة هناك وإنّما نسائم رقيقة تُنعش الفؤاد وتُحيي الآمال. تماماً كما كان ينجح في خداع القارئ بعناوين دواوينه السابقة وأسماء القصائد فيعتقدها القارئ مُنقادة إليه، سَهلة الهضم، قريبة المنال، فيكتشف بعد خوضه غمار التقائها أنّها العصيّة المُستحيلة البعيدة عن الترويض.

هل حقاً سيطر النسيم فافتقدنا العاصفة التي بشّر بها الشاعر، أم أنّ العاصفة مُتغلّفة في طيّات النسيم، وليس كما قال الشاعر بأنّ النسيم المتغلّف في طيّات العاصفة. قد تختلف الآراء وقد تلتقي، تماماً كما قد تتصارع وتتّفق حول مفهوم النّسيم ودلالة العاصفة.

وكما دخلنا في هذه المتاهة من التأويلات فإنّ الشاعر يأتينا بالكثير ممّا لم نتوقّع وممّا يثير الجَدَل والتساؤل.

أوّل غير المُتوقّع، هذه الجمل السلسة الهادئة بصورها العادية ومعانيها القريبة التي تُشير إلى منعطف في أسلوب ميشيل حداد الشعري. فقد عرفنا في شعره تلك الصور والاستعارات المتداخلة المتشابكة المعقّدة التي تُرهق القارئ المُتبحر وتستدعي المراجعة:

أحبّك أنت أغار عليك

لأنك أنت بلادي

وأنّك أنت الوطن. (ص٩)

وهكَذا بعَفوية وسلاسة ووضوح على عكس ما تعوّدناه منه في قصائده السابقة.

وثاني غير المتوقّع هذا التحوّل في مضامين القصيدة عند ميشيل حداد. فقد اختار لنفسه، على مدار ما يقرب الأربعين عاماً، طريقاً يختلف عمّا اختاره الآخرون، ففي الوقت الذي تمحورت قصائد الشعراء حول هموم الجماهير العربية والصراع الفكري والسياسي ما بين الحركة القومية الفلسطينية والفكر اليساري الثوري من جهة والحركة الصهيونية وما يُرافقها من الفكر الغربي الاستعماري من الجهة الأخرى، فقد تمركز ميشيل حداد في شعره حول الإنسان كإنسان وهمومه الذاتية بعيداً عن الضوضاء راضياً بالنقد اللاذع والتصنيف غير المنصف والتجاهل الإعلامي الشديد. وها نحن نجده في قصائد ديوانه الأخير ينتفض على ماضيه

كلّه ويُعلن أنّه عائد إلى هذا الوطن الذي غادره في الماضي ليستريح عنده بعد أن يُضمد جراحه. ففي تعنّت الرقابة المزيّفة ضمير غائب يُفيق (ص١٢). ويؤكد أنّ تحقيق الأمل بالرسوّ في الوطن أكيد طالما فاقَ الضمير واستعدّت الزنود للعمل:

لأنّ سفينتنا القادمة

سترسو بميناء أجدادنا

لنهبط منها إلى أرضنا

فنجثو نقبّلها بخشوع

ونمضي عليها بأفراحنا. (ص٥١).

وثالث غير المتوقّع، إحساس الشاعر بالزمن وتستّره على خوفه من مرور الزمن بإثارة الآمال والأحلام والرغبات في تحقيق كل ما يريد. لقد ظهرت مخاوف الشاعر من الزمن في العديد من قصائد دواوينه السابقة. ولكنه هنا يظهر الخوف الشديد من أن يحدث الذي يخاف ويُفارق الحياة قبل أن يتحقّق الأمل الذي يسعى لتحقيقه وهو اللقاء بالمحبوبة الأثيرة التي قد يكون رمز إليها بالوطن وتحقيق الاستقلال وقيام الدولة:

إيّاك أن لا تُسرعي

إيّاك أن تؤجّلي الحضور

فهذه الأعمار يطويها الزمان (ص ٥٤)

وقوله:

أحاور النومَ وأغفو في السرير
أسابق المصير
أبحث عن ذبالات الشموع
كي أنير. (ص ٥٧)

ويتغلّب الشاعر على وطأة الزمن بتلك الأماني التي يرجو تحقيقها وبلقاء المحبوبة التي بعُدت وينتظر عودتها كشاب لا يزال في العشرين من عمره:

مع الشتاء موعدي
تأخّر المطر
فلتَجعلي لقاءَنا باكورة
في أوّل الخُضرة، حينما
يُبرعم الزهر (ص ٨١)

وممّا قد يُثير التساؤل والجدل في قصائد ميشيل حداد الأخيرة هذا المزج ما بين الحبيبة والوطن. واللقاء بالمحبوبة هو اللقاء بالوطن. وقد تتداخل صور هذه المحبوبة التي يعشقها الشاعر بوَلَه لتُشكّل الوطن أو المحبوبة الحقيقية. وقد يراها البعض تلك الفتاة التي يرجو الشاعر وجودها ولا وجود لها في الواقع.

من الثوابت التي ميّزت شعر ميشيل حداد ولا تزال في قصائد ديوانه الأخير هي هذا الإيقاع الداخلي الجميل المُتناسق اللفظة والجملة. فرغم أنّه تحرّر من بحور الشعر وخرج على قواعد القصيدة المرسومة ورفض كل قيود تعريفات الشعر إلاّ أن هذا الإيقاع الداخلي المُنساب يشدّ إلى شعره. وكما في شعره السابق هكذا في قصائد ديوانه الأخير يظل ميشيل حداد ذلك العاشق المتيّم:

أعالج الأنامل الحبيبة
أمسحها بالشفتين
وأغمض العينين (ص ٧٧)

ويظل الذي لا يعترف بعدد سنوات العمر، المُحب المُتفائل الذي لا يرى السعادة إلاّ إلى جانب المحبوبة:

سبيلي إليك بعيدٌ عليّا
وإنّي بعشقي لعينيك مُرهَقْ
فكوني مبادرة بالحضور
وشُدّي رحالك حالاً إليّا (ص ٨٢)

وتتميّز بعض القصائد بأسلوبها القصصي وإن كان الشاعر قد حاول جاهداً التخفيف من ذلك مثل قصيدة "حياة" التي

يروي فيها قصة طفلة من قرية "شعب"، وكان يُفَضَّل لو أنَّ الشاعر حذف آخر مقطعين من القصيدة لأنّ السردية طغت على المقطع قبل الأخير، والشعار الزائد كان هدف المقطع الأخير. بينما نجده في قصيدة "نادين" ينجح في تقديم قصّة جميلة لمأساة طفلة فلسطينية تعيش في الغربة، لا تعرف أقاربها ولم تلتق بهم، ولا تُتقن نطق اللغة العربية، وأمنيتها أنْ تلتقي الأهل وتحضنهم وتعيش معهم.

هل هذه التحوّلات في شعر ميشيل حداد، كما برزت في قصائد هذا الديوان، تُشكّل منعطفاً في أسلوبه الشعري وفي موقفه من مجمل القضايا والهموم الإنسانية؟ أم أنّها مجرّد تجاوبات لواقع خاص عاشَه الشاعر وظروف فرضت نفسها عليه فجاءت قصائده مُغايرة لما عَهدناه منه!؟

مهما كانت الإجابة، تظلّ الحقيقة أنّ ميشيل حداد أحد أركان الحركة الشعرية الفلسطينية في بلادنا وأحد الذين شقّوا لهم مساراً مُتميّزاً، كنّا نحتاج إلى سنوات عديدة وتَبدّل مفاهيم لنقبل بما يأتينا به ونستسيغه.

* ملحق "كل العرب" ١٩٩٤/٦/٣